الدرس الرابع: كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة قضية "اللفظ والمعنى"

سعى النقاد منذ القديم للعناية بالشعر والشعراء، فراحوا يعتنون بالعديد من القضايا التي تخصه كقضية الصراع بين القديم والحديث، وقضية عمود الشعر، وقضية اللفظ والمعنى، هذه الأخيرة التي أولاها الناقد ابن قتيبة عناية خاصة في كتابه "الشعر والشعراء".

1. نبذة عن الكاتب

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، من أعلام القرن الثالث هجري، النحوي اللغوي السني، فارسي الأصل، ولد في الكوفة سنة 213ه، وتثقف على أهلها، نال ابن قتيبة حظا كبيرا من العلوم الشرعية والدينية، والبلاغة والمنطق، والحديث والتفسير والفقه، من أبرز من تتلمذ عليهم: إسحاق بن راهوية، أبو حاتم السجستاني، الجاحظ، توفي في بغداد سنة 276ه بعد أن أكل أكلة فاسدة.

من مؤلفاته:

1. مشكل القرآن
2. غريب القرآن
3. عيون الأخبار
4. أدب الكاتب

2. نبذة عن الكتاب

اختلف النقاد في عنوان الكتاب، بين "أخبار الشعراء"، و"الشعر والشعراء"، و"طبقات الشعراء"، و"المعارف". لكن عنوان "الشعر والشعراء" هو العنوان الأدق.

هو كتاب عظيم الفائدة ظهر في منتصف القرن الثالث هجري، يتصل بالنقد القديم، عنونه الكاتب بالشعر والشعراء فجزء منه وهو المقدمة تحدث فيها عن الشعر وأهم القضايا التي شغلت القدماء في ذلك الوقت، والقسم الثاني مضمون الكتاب ترجم فيه للشعراء المشهرين في القديم والحديث.

مقدمة نالت شهرة واسعة لما اشتملت عليه من آراء في النقد الأدبي، أما القسم الثاني فيقول ابن قتيبة:"هذا كتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره..." أي أنه ترجم للشعراء المشهورين في الأوساط الأدبية.

3. أهم القضايا في الكتاب

1. تعرض ابن قتيبة إلى مسألة القديم والحديث، حيث لم ينحز إلى القديم لقدمه، وإنما نظر

إليهما نظرة موضوعية، لأن في نظره الأدب العربي القديم وحدة فنية مستمرة ومتكاملة، وليس الإبداع حكرا على قوم دون آخرين يقول:"ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلال لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين فأعطيت كل حظه ووفرت عليه حقه"بل عاب على من يأخذ معيار القدم أو الحداثة، دون النظر إلى القيم الفنية للشعر. لذلك ترجم لـ 206 شاعر بين الجاهلية، والإسلام، والمحدثين.

3.طرح ابن قتيبة نظام القصيدة العربية، والتي تتمثل في التشبيب بالمرأة ووصف جمالها، وبعدها يقف حيث حلت، ويبكي الديار، ويصف فرسه أو ناقته التي يرحل عليها، ليصل إلى غرضه. وقد أثنى على هذه المنهج وعده جيدا، ودعا الشعراء إلى ضرورة التمسك به.
4. ومن القضايا التي ركز عليها قضية الطبع والتكلف، فراح يقدم لنا علامات يعرف بها الشاعر المطبوع وهي: سمح بالشعر والاقتدار على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وعلامات يعرف بها الشاعر المتكلف، وهي: طول التفكر، شدة العناء، رشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه...وهو الذي "قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة".
5.من القضايا التي طرحها ابن قتيبة عيوب الشعر، مثل الإقواء، الإيطاء، الإجازة، وهي عيوب تخل بجمال الشكل الفني.
6. كما تحدث عن العلاقة بين الشاعر والزمن، لأن بعض الأوقات ذو تأثير خاص في المزاج الشعري، كأول الليل قبل تفشي الكرى وصدر النهار قبل الغداء.

4. قضية اللفظ والمعنى

احتلت قضية اللفظ والمعنى كتابات النقاد العرب القدماء، لما للفظ والمعنى من أهمية في تشكيل النص الأدبي.

أ. تعريف اللفظ

1. لغة

تقول لفظت الشيء من فمي ألفظه أي رميته، ولفظت به أي تكلمت به، وجمعها ألفاظ.

2. اصطلاحا

اللفظ هو الحاصل المادي والمقابل الحسي(المنطوق) للمعنى الذي هو فكرة ذهنية مجردة.

ب. تعريف المعنى

1. لغة

المعنى مشتقة من عنيت بالكلام كذا، أي قصدت.

2. اصطلاحا

المعنى هو الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزاء الألفاظ والصور الحاصلة في العقل.

إن الاهتمام بقضية اللفظ والمعنى يعود إلى أسباب انطلقت أساسا من قراءة النص الديني القرآن الكريم، للكشف عن وجوه الإعجاز فهل القرآن معجز بألفاظه أم بمعانيه، وذلك في القرن الثالث هجري. أول من تحدث عن هذه القضية هو الجاحظ انطلاقا من مذهبه الاعتزالي، ومقولته المشهورة "المعاني مطروحة في الطريق". فانقسم النقاد إلى ثلاثة فرق:

أ. فريق تعصب للفظ
ب. فريق تعصب للمعنى
أ. فريق زاوج بين اللفظ والمعنى

أ. الفريق الأول

أول من تعصب للفظ الجاحظ، الذي يضع الجودة والجمال في الألفاظ، وجودة السبك وحسن التركيب، يقول:"المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي، والبدوي، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك" لأن عصره شهد ظاهرة السرقات في المعاني بين الشعراء، لذلك تدخل الجاحظ ليبدي رأيه في هذا الجدل، فرأى أن المعاني متاحة لكل إنسان.

ب. الفريق الثاني

يعد أبو حيان التوحيدي، من الكتاب الذين يميلون إلى المعنى على حساب اللفظ، بل عاب على بعض النقاد احتفالهم باللفظ، يقول:"ويجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم، وحلاوة التأليف، واجتلاب الرونق".

ت. الفريق الثالث

هناك من النقاد من جمع بين اللفظ والمعنى، وأنهما يتساويان في الجودة والقبح، منهم ابن قتيبة، الذي قسم الشعر انطلاقا من هذه الثنائية إلى:

أ. ضرب حسن لفظه وجاد معناه

قول أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ب. ضرب حسن لفظه وقصر معناه

كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ت. ضرب حسن معناه وقصر لفظه

قول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ث. ضرب قصر لفظه وقصر معناه

قول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

5. في ميزان النقد

ما أخذ على الكتاب:

1. تأثر ابن قتيبة في تقسيمه للشعر بعلم الفقه.
2. تناقضه في قضية القديم والحديث فنجده مرة لا يتعصب للقديم، ومرة يدعو إلى الرجوع إلى القدماء في خطوات كتابة القصيدة.
3. أنه أهمل الترجمة لعدد من الشعراء المعاصرين له، وكان لهم شهرة أمثال: أبو تمام، البحتري، ابن الرومي.
4. عدم وضوح مقاييسه النقدية في تقسيمه لأقسام الشعر الأربعة.

في الأخير رغم أن الكتاب عنوانه الشعر والشعراء، إلا أن ابن قتيبة أهتم بالشاعر أكثر من الشعر، فركز على تكلفه أو طبعه، وحالته النفسية في قول الشعر، وغرائزه وثقافته، أما في حديثه عن

الشعر فذكر التكلف وجودة الصنعة، وضرورة التناسب بين الموضوعات في القصيدة، وعن العيوب الشكلية التي تعتري العلاقات الإعرابية والنغمات الموسيقية والقوافي، وقضية اللفظ والمعنى...وغيرها.